دراسةٌ تحليليةٌ في البنيةِ المعرفيةِ للقصصِ القرآنيِّ وأثرِها في تشكيلِ الوعيِ الحضاري

◆ د. علي صاحب الجصاني[1]

■ خلاصة

تتناول هذه الدراسة التحليلية القيمة الدور المحوري والأساس الفاعل للقصص القرآني في صياغة الوعي الحضاري الحقيقي لدى الإنسان المعاصر، متجاوزة بذلك الرؤى السردية التاريخية الضيّقة والمحدودة كلّها إلى آفاق أرحب وأعمق، تتمثّل في بناء القانون الكلّي العام أو السُّنن الإلهية الحاكمة لصعود الأُمم المختلفة وأفولها عبر التاريخ. وتتأسّس البنية الفلسفية العميقة للقصّة القرآنية على أربعة أبعاد جوهرية متكاملة: البُعد المعرفي لعملية استنباط تلك القوانين الكلّية الثابتة، والبُعد السلوكي لتقديم النماذج العملية للاقتداء، كالثبات والدعوة بالحُسنى، والبُعد الخُلُقي لتفعيل الضمير المعياري ضدّ العبث والمادية، والبُعد الوجداني لإثارة طاقة الأمل والخشية في القلوب. ويسعى هذا المنهج القرآني الشامل لتفكيك ظاهرة تقليد الآباء، وتحرير العقل البشري من آفة تقديس الماضي والتبعية العمياء للسلف، مستبدلاً إيّاها بالبرهان العقلي السليم، ومبطلاً وَهْم الرصيد الحضاري المتوارث بالانتساب الجيني. كما يُعيد القصص صياغة المعايير الحضارية بتقديم العمران القِيمي والعدالة الإنسانية على التراكم المادّي والصروح الشاهقة، مفعّلاً مبدأ الاستخلاف الإنساني المسؤول بهدف صناعة معالم المستقبل الجديد المشرق والواعد.

الكلمات المفتاحية: القصص القرآنيّ، الوعي الحضاريّ، السُّنَن التاريخيّة، الاستخلاف، تقديس الماضي، العبرة القرآنيّة.

١ - كاتب عراقي، دكتوراه تفسير مقارن، أستاذ في مركز دراسات جامعة الكوفة.

Analytical Study of Cognitive Structure of Qur'anic Narratives, Their Impact on Shaping Civilizational Awareness

◆ **Dr. Ali Sahib al-Jassani**

Iraqi writer, holding PhD in Comparative Exegesis, and professor at the University of Kufa's Center for Studies.

Abstract

This study examines the pivotal role of Quranic narratives in shaping the civilizational consciousness of contemporary humanity, transcending mere historical storytelling to reach broader horizons, specifically, the extraction of the divine laws governing the rise and fall of nations. The philosophical framework of these narratives rests on four integrated dimensions: the cognitive dimension, for deriving universal principles; the behavioral dimension, for providing models worthy of emulation; the ethical dimension, for activating the conscience against materialism; and the emotional dimension, for evoking both hope and reverence. This approach seeks to liberate the human mind from the pitfalls of dependency and blind imitation, replacing them with rational proof and dispelling the illusion of inherited superiority, while reshaping civilizational standards by prioritizing value-based development and human justice over material accumulation, thereby actualizing the principle of responsible stewardship in building a promising future.

Keywords:

Quranic Stories, Civilizational Awareness, Historical Laws, Vicegerency, Past Sanctification, Quranic Lessons.

مقدّمة

إنَّ التاريخ الإنسانيّ، في جوهره، ليس مجرّد مستودع للأحداث المنقضية، ولا أرشيفًا لتدوين سير الملوك وأرقام السنين، بل هو الساحة الحقيقيّة التي تتشكّل فيها الهُويّة الإنسانيّة ويُختبر فيها وعي الأُمم وقدرتها على التحوّل والنهوض. ولعلّ أعمق الأزمات التي تعاني منها المجتمعات في مسيرتها نحو النهوض الحضاريّ هي «أزمة الوعي بالتاريخ»؛ إذ يتأرجح العقل البشريّ غالبًا بين نقيضين متطرّفين: إمّا الانسلاخ التامّ عن الماضي والتنكّر له بوصفه عبئًا ثقيلاً لا طائل من الارتباط به، أو السقوط في فخّ «التقديس الأعمى» والانبهار الكسول بأمجاد الآباء وكأنّها رصيد يُورث دون جهد أو استحقاق. وفي كلتا الحالتين يفقد الإنسان قدرته على الفعل الحضاريّ الخلّاق، ويتحوّل إلى كائن مسلوب الإرادة عاجز عن استيعاب حاضره أو استشراف ملامح مستقبله.

وهنا يبرز «القصص القرآنيّ» بمنهجيّته المعرفيّة المتفرّدة، لا بوصفه كتابًا في التاريخ يوثّق الوقائع والأسماء والتواريخ الدقيقة، بل بوصفه «مشروعًا شاملاً لإنقاذ الوعي الإنسانيّ» من الانزلاق في أحد هذين الفخّين. فالقرآن الكريم يتدخّل في السرد التاريخيّ ليُحدِث قطيعة معرفيّة جذريّة مع طرق القصّ التقليديّة؛ إذ يتعمّد تجريد الأحداث من قيود الزمان والمكان ليعبر بها من ضيق «الواقعة الفرديّة» المنتهية بانتهاء أصحابها إلى سعة «القانون الكلّيّ» الصالح للتطبيق في كلّ زمان ومكان، أو ما يُصطلح عليه قرآنيًّا بـ«السُّنَن». وهذه السُّنَن تمثّل القواعد الصارمة المطَّرِدة التي تحكم صعود الحضارات وأفولها، وبها يتحوّل التاريخ من متحف جامد للزيارة إلى مختبر حيّ للتدبّر والاعتبار والبناء.

ومن أخطر الإشكاليّات الحضاريّة التي يواجهها القصص القرآنيّ بالتحليل والتفكيك إشكاليّةُ «الآبائيّة» وتقديس الماضي. فالقرآن يشنّ هجومًا منهجيًّا على العقليّة التي تمنح «القِدَم» شرعيّة معرفيّة مطلقة وتستنسخ تجارب السلف دون بصيرة أو نقد. وعبر أدوات لغويّة ونفسيّة عميقة، يسحب القرآن من الماضي سلطته التمجيديّة، ويُسقط وَهْم «الرصيد الحضاريّ المتوارث»، مبيّنًا أنَّ الأُمم لا ترث أمجاد غيرها بالتسلسل الجينيّ أو الانتساب العرقيّ، بل تُختبر في حاضرها وتُحاسب على فعلها الراهن وفق مبدأ «الاستخلاف» الذي يضع الإنسان أمام مسؤوليّته الفرديّة والجماعيّة الكاملة، قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وتتضافر هذه الرؤية مع المعطيات الفكريّة للمفكّرين الإسلاميّين الحضاريّين؛ فبعض الباحثين يرى أنَّ مشكلة الأُمّة الإسلاميّة ليست نقصًا في الموارد، بل ضعفًا في الفاعليّة الحضاريّة وقصورًا في إنتاج الأفكار؛ فإنَّ العلّة الجوهريّة — في نظره — تكمن في شلل (الفعاليّة الحضاريّة)؛ أي عجز الإنسان المسلم المعاصر عن تحويل ما يملكه من موارد وطاقات ومساحات زمنيّة إلى فعلٍ حضاريٍّ ملموسٍ ومؤثّر. وهذا الشلل الحركيّ والعمليّ نابعٌ بالأساس من (عقم فكريّ) وقصور شديد في توليد وإنتاج (الأفكار الحيّة والمبدعة). فالأفكار هي الروح الدافعة، وهي الطاقة الكهربائيّة التي تحرّك عجلة النهضة، ودون شبكة متماسكة من الأفكار الفعّالة، تبقى الموارد الماديّة مجرّد أكوام من الأشياء المتناثرة العاجزة عن بناء حضارة أو إحداث تغيير حقيقيّ. وقد أكّد (محمد إقبال) أنَّ تجديد التفكير الدينيّ مشروطٌ بتجاوز الجمود المعرفيّ والانفتاح على الحياة بروح إبداعيّة متجدّدة، فـ(إقبال) يرى أنَّ الوجود الكونيّ يتّسم بالحركة الدائمة، وأنَّ الإسلام بطبيعته دينٌ حيويٌّ يرفض الجمود. ولذا، فإنَّ العقل المسلم مطالبٌ بأن يستعيد فاعليّته وحركة اجتهاده لإنتاج معرفة تواكب المستجدّات. وهذا الفهم العميق لضرورة الحركة والتجديد يستلهم روحه من السُّنّة النبويّة المطهّرة التي تؤكّد استمراريّة ضخّ الدماء الجديدة في شرايين الأُمة. وفي هذا السياق يأتي

هذا البحث ليكشف عن «آليّة الصنع القرآنيّة» للإنسان الحضاريّ الفاعل من خلال تحليل بنية القصص القرآنيّ وأدواره الجوهريّة في صياغة الوعي.[١] [٢]

أوَّلًا: البنية الفلسفيّة للقصص القرآنيّ

يتّسم العرض القرآنيّ للتاريخ والقصص بطبيعة فريدة تُخرِجه من إطار السرد التقليديّ إلى إطار المنهج والبنية المعرفيّة المتكاملة. وقد أشار الباحثون إلى أنَّ القصة في القرآن تمتاز بنقطتين رئيستين:

- تحرّي جانب الصدق والواقعيّة لا مجرّد التخييل والإمتاع.
- جانب الهدف والغرض الذي جاء القصص من أجله.

لم يتناول القرآن القصّة باعتبارها عملاً فنيًّا للتسلية ولا للإخبار عن الماضين كما يفعل المؤرّخون والقصّاصون، وإنَّما كانت غايتها الأسمى المساهمة في تحقيق أهدافه الدينيّة والتربويّة الكبرى.[٣]

وعناصر القوّة في القصص القرآنيّ مستمدّة من واقعيّة الموضوع وصدقه، ودقّة عرضه، والعناية بإبراز الأحداث ذات الشأن في موضوع القصة دون الالتفات إلى الجزئيّات التي لا تخدم الهدف، وذلك مما يشوّق القارئ ويوقظ انتباهه، ويفرض عليه مشاركةً فعّالةً في استحضار أحداثها. وهذا ما يجعله يندمج في القصة ويعيش أحداثها، فيتأثّر بها وينتفع بما فيها من عظات وعبر.[٤]

وقد جاء القصص القرآنيّ على سُنّة الحياة التي يحياها الناس ولم يخرج على مألوفها؛ لأنَّ

---

١ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص٢٤-٢٦.
٢ - ينظر: محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص١٦٨-١٧٢.
٣ - محمد باقر الحكيم: القصص القرآني، ص٢١.
٤ - عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، ج٨، ص٥٩٠.

الناس يتداولون الأنباء ويروون الأخبار ويتناقلونها على تعدّد الأشخاص واختلاف الألسنة، ثُمَّ لا يكون شيء من ذلك التعدّد وهذا الاختلاف حائلاً بينهم وبين أن يفيدوا منها وينتفعوا بها؛ وهذا ما يمنح القصة القرآنيّة طابع الحياة والحيويّة والديمومة عبر العصور المتعاقبة.[1]

ولفهم آليّة اشتغال القصص القرآنيّ في بناء الوعي الحضاريّ فهمًا عميقًا ومتكاملاً، لا بدّ من الوقوف على أبعاده الفلسفيّة الأربعة التي تتضافر في ما بينها لصناعة شخصيّة إنسانيّة متوازنة تمتلك أدوات الفعل الحضاريّ الراشد:

١- البُعد المعرفيّ (إنتاج النموذج الذهنيّ والقانون الكلّيّ)

بتجريد القصّة من تفاصيلها الزمنيّة والمكانيّة، يقود القرآنُ القارئَ ذهنيًّا إلى تكوين قانونٍ كليٍّ مجرّدٍ. وطريقة العرض التجريديّة هذه تُنتج معارف وقوانين ونماذج عقليّة يمكن لأيّ ذهنٍ قبولها والأخذ بها، وهو بهذا يتجاوز المستوى الفرديّ، فلا يقتصر في عمليّة البناء والإعداد على معارف شخصيّة أو أحداث فرديّة تنتهي بانتهاء أصحابها، بل يعمد إلى بيان تلك الحقائق في ثوبها النموذجيّ العام ليخاطب بها مختلف الأمم والشعوب على مرّ العصور والأزمنة. وهذا البُعد المعرفيّ هو الذي يمنح القصة القرآنيّة ديمومتها وصلاحيّتها المتجدّدة في كلّ عصرٍ ومصرٍ.

أ- الآيات السُّنَنيَّة (قوانين النظام العام):

تنصّ هذه الآيات على أنَّ هناك نظامًا صارمًا يحكم حركة الأُمم ومسيرة الحضارات، وهو متاح للعقل ليدرسه ويستنبط منه القواعد والنماذج، قال تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فإنَّ هذه الآية بمثابة القانون المعرفيّ الذي ينقل الذهن من «الواقعة» الجزئيّة المنقضية إلى «السُّنّة» الكليّة

١ - عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، ج١٠، ص١١٠.

الثابتة. كما في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فهي تؤكّد «اطّراد القانون» وثباته، ما يسمح للعقل بإنتاج نماذج ذهنيّة صالحة للتنبّؤ بالمستقبل استنادًا إلى استقراء الماضي. يقول الشيخ (مكارم الشيرازي): «إنَّ قريشًا والمشركين الذين أنكروا آيات الله وحاربوا قادة الإنسانيّة ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما اقترفوه، بل ذلك قانون دائم وسُنّة إلهيّة تشمل من هم أقوى منهم كآل فرعون، كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك».[1]

ب - آيات تجريد العبرة (النموذج الذهنيّ الكليّ):

تخاطب هذه الآيات «أولي الألباب» و«أولي الأبصار»، باعتبار أنَّ (اللُّبّ) و(البصيرة) هما القوّتان العقليّتان المسؤولتان عن التجريد وتحويل القصة من حدث جزئيٍّ إلى معرفةٍ كليّةٍ صالحةٍ للتعميم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، فإنَّ «العبرة» هنا هي المعرفة المجرّدة التي عبرت من سياق الزمان والمكان لتصبح قانونًا عقليًّا خالدًا صالحًا لكلّ جيلٍ، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

وقد بيّن السيد (محمد باقر الصدر) أنَّ العقاب والعذاب والعبر الناتجة عن مصير تلك الأمم والمذكورة في هذه الآيات «ليس بمعنى العقاب الذي ينزل من السماء يوم القيامة، وإنّما ينزل من سُنَن التاريخ نفسها، حيث يفرضه على كلّ أمّةٍ تريد أن تبدّل خلق الله، مع الالتفات إلى أنَّ نزوله ليس فوريًّا بالضرورة؛ لأنَّ الفوريّة التي نفهمها في حياتنا الاعتياديّة تختلف بلحاظ امتداد التاريخ الإنسانيّ».[2]

١ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٥، ص٩٣-٩٤.
٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٩٧.

٢- البُعد السلوكيّ (تقديم الأفعال النموذجيّة للاقتداء)

لا تكتفي القصة القرآنيّة بتقديم العبرة الذهنيّة المجرّدة، ولا تقف عند حدود إنتاج المعرفة الكليّة وتأصيل السُّنن، بل تتجاوز ذلك لتقدّم نماذج حيّة من السلوك البشريّ الفاعل في قلب المواجهة الحضاريّة الكبرى. فالقرآن الكريم لا يكتفي بأن يُخبرنا ما يجب اعتقاده، بل يُرينا كيف نَتَصَرَّف، وكيف نُواجِه، وكيف نَثْبُت على المبدأ حين تشتدّ رياح التكذيب وتتضافر قوى الطغيان.

إنَّ طريقة عرض أفعال الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين وردود أفعالهم في اللحظة الحضارية الفارقة تُشكّل منظومة سلوكية متكاملة، تُحدّد للمؤمن ما يجب فعله حين يجد نفسه في موقف مماثل، فيتعلّم الصبر الاستراتيجي الذي ليس استسلامًا بل انتظارًا فاعلاً للحظة التمكين، ويتعلّم الحُجّة العقلية التي تستأصل شبهة المخالف وتنقض مسلّماته الزائفة، ويتعلّم الدعوة بالحسنى التي تستميل القلوب ولا تعادي الأشخاص، ويتعلّم العزلة عن الظالمين وعدم الركون إليهم حتى لو اقتضى ذلك الوقوف وحيدًا في ميدان التاريخ. وفي المقابل، لا يُهمل القرآن الجانب التحذيري من المعادلة السلوكية؛ حيث يعرض بدقّة بالغة ومقصودة سلوكَ المكذّبين بكلّ تفاصيله وعلاماته الكاشفة: الاستهزاء حين يعجز المنطق، والتحدّي حين يضيق المجادل، والإعراض حين تقطع الحُجّة آخر منفذ للمراوغة. هذا العرض التفصيلي ليس ترفًا سرديًّا، بل هو تطعيم نفسي ومعرفي مسبق، يجعل المؤمن قادرًا على تشخيص هذه الأنماط السلوكية المتكرِّرة في كلّ زمان ومكان، فلا يُفاجأ بها ولا يتهاوى أمامها، بل يتعامل معها بوصفها خطواتٍ معروفة مرّت على غيره من قبل.

وبهذا التكامل بين عرض السلوك الممدوح للاقتداء والسلوك المذموم للاجتناب، يرتفع القصص القرآني من مستوى النص المقروء إلى مستوى المنهج المعاش، ومن مستوى المعلومة المخزونة في الذاكرة إلى مستوى الأداء الراسخ في الجوارح. فالقارئ لقصة موسى عليه السلام لا يخرج منها عارفًا بتاريخ نبيّ فحسب، بل يخرج حاملاً بنية سلوكية جاهزة للتفعيل، وقادرة على توجيه تصرّفاته حين يُبتلى بفرعون زمانه أو يواجه قارون عصره.

أ - أنموذج الدعوة بالحسنى والحُجّة:

إذا كانت القصّة القرآنية قد رسمت للمؤمن صورة الهدف الذي يسعى إليه والغاية التي يناضل من أجلها، فإنَّها في المقابل لم تتركه حائرًا في اختيار الطريق الموصل إليها، بل قدّمت له بدقّة بالغة منهج التعامل مع الآخر وأسلوب مخاطبة العقل والوجدان. فالمؤمن في مواجهة الباطل بين يديه منهجٌ ثالثٌ يجمع بين قوّة الحُجّة، ورقّة الخطاب، ودفء التعامل الإنساني. إنَّ النموذج السلوكي الذي يُقدّمه القرآن في باب الدعوة ينبع من فلسفة راسخة، مفادها انفتاح القلوب حين تجد أمامها عقلاً يحترمها وكلامًا يُخاطب فطرتها. قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥]، فالدعوة إلى سبيل الله مشروطة بالحكمة والموعظة الحسنة. يقول (الشيخ الستراوي): «الحكمة ليست العقل الموجود لدى كل إنسان، وإنَّما هي أمر آخر تكمل به النفس بعد الإيمان الكامل والتسليم المطلق لله والتوكّل عليه وإيجاد التقوى، فحينها يحصل الإنسان على درجة منها، فلا ينزلق ولا يتعثّر، وتكون نظرته للأمور نظرة حكيمة منبثقة من الإيمان بالله»، كما قال تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٣٤-٤٤]، وتمحور السلوك هنا حول «القول اللّيّن»، وهو فعل إرادي واعٍ لمواجهة الطغيان مع الإصرار على أداء الرسالة وفق أرقى أساليب الخطاب الإنساني.[١]

ب - أنموذج الثبات والصبر الاستراتيجي:

إذا كان أنموذج الدعوة بالحسنى يُعَلِّم المؤمن كيف يُخاطب الآخر، فإنّ أنموذج الثبات والصبر يُعَلِّمُه كيف يُدير ذاته حين يُكَذَّب ويُستهزأ به ويرى النصر يتأخَّر. وهذا الأنموذج هو من أعمق ما قدَّمه القصص القرآنيّ من مناهج سلوكيّة؛ لأنَّ الإنسان في لحظة الاتّساع والتأييد لا يحتاج إلى تعليم، أما في لحظة الضيق والوحدة والانتظار الطويل فهو في أمسِّ الحاجة إلى

١ - عبد المجيد الستراوي: القرآن نهج وحضارة، ص١٣٣.

نموذج يثبّته ويقول له: غيرك مرَّ بهذا الطريق وصمد. ولذلك لم يكتفِ القرآن بالأمر بالصبر بصفته تكليفًا مجرَّدًا، بل جسَّده في سيرة أعظم الرجال وأكثرهم اختبارًا وأمضاهم عزيمةً؛ ليكون الصبر مرئيًّا وملموسًا قبل أن يكون واجبًا مسموعًا، قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿**قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُوا إِنّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الصبر هنا ليس عجزًا أو انكفاءً على الذات وهروبًا من المواجهة، بل هو فعلٌ موجَّهٌ ومقصودٌ لامتصاص ضغط الواقع، والاستعداد لانتظار لحظة التمكين الحَقيقيّة. يذكر (الشيخ جوادي آملي) في هذا الصدد: «الصبر غير السكوت؛ فالصبر عبارة عن كفِّ النفس بأمر من الله، وهو أهم عوامل الغلبة في التعاطي مع البلايا».[1]

٣- البُعد الخُلُقيّ (تفعيل الضمير المعياريّ والقِيَميّ)

طريقة العرض القرآنيّ للقصص تمنح الفرد ميزانًا خُلُقيًّا راسخًا لتقويم الأحداث تقويمًا معياريًّا، لا للانبهار بها أو الاكتفاء بمشاهدتها. فالقصص تُقَدِّم الخبر بوصفه حدثًا يَتَّسِم بصفة الخير أو الشر، فحين يذكر القرآن عادًا وإرم ذات العماد لا يُمَجِّدها، بل يجعل عظمتها مدعاة للخوف والتحذير لا للافتخار. هذا البُعد الخُلُقيّ هو الذي يُحَوِّل التاريخ من مجرّد رؤية منبهرة بالعظمة المادية إلى سجل متكامل للعبر والدروس القِيَميّة، قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدّ قُوّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [غافر: ٨٢]، فهذه الآية تُعلن صراحة أنّ الآثار الماديّة الضخمة لم تُغنِ شيئًا حين غاب الميزان القِيَميّ وانفصلت الحضارة عن مصدر الهداية، قال عزّ وجلّ: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

---

١ - جوادي آملي: تفسير تسنيم، ج٤، ص١٩١.

نرى القرآن في هذه الآية المباركة يُعَرِّف العمارة التي لا هدفَ خُلُقيًّا لها بأنّها عبث، وهو تقويم خُلُقيّ صريح يُخرج البناء من دائرة الإعجاز الحضاري إلى دائرة المحاسبة والمساءلة، قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦]، فإنّ: «تاريخ أهل الأرض متخم بالعبر والعظات لمن يعتبر ويتّعظ، فكم من أُمّة بلغت الغاية من الترف والحضارة، ولما طغت وبغت أخذها الله بظلمها أخذًا عزيزًا مقتدرًا، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون من سلطان وأموال وما يبنون من قصورٍ وقلاعٍ. والآية تُفَرِّق بين نوعين من الرؤية: رؤية العين التي تُدرك الشكل والحجم والزخرف، ورؤية القلب التي تُدرك المعنى والغاية والمصير. فالسير في الأرض بعيونٍ مفتوحة وقلوبٍ مغلقة لا يُفيد شيئًا، بل ربما يزيد الإنسان غرورًا حين يرى عظمة من هلكوا فيحسبها دليلَ قوّةٍ لا عبرةَ بزوال. أمّا السير بقلب يعقل فهو الذي يُحَوِّل المشهد الحضاري المندثر من متحف للإعجاب إلى مدرسة للحسّ».[1]

٤- البُعد الوجداني (خلق الدافعيّة والاستجابة القلبيّة)

لا تكفي المعرفة والسلوك والقِيم إن لم يَتَحَرَّك القلب ويَهْتَزُّ الوجدان تجاهها. وطريقة العرض القصصي تُثير وجدان المتلقّي وتستنهض هِمَّته من جانبين متكاملين لا يقوم أحدهما دون الآخر:

أ. الجانب الأول: الخوف من العاقبة الكونية الكائنة بالجبابرة كلّهم التي لا تستثني قومًا دون قوم، كما في مصير ثمود؛ إذ تُذكر الصيحة والرجفة بوصفهما عذابًا يُثير الخوف الوقائي ويجعل القلب حذرًا ومتيقّظًا، قال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ**

١ - محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، ج٦، ص٤٧٢-٤٧٣.

صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

ب. الجانب الثاني: الرجاء وحسن الظنّ بالله تعالى. إنَّ من أبرز الثمار التي تُثمرها قصص القرآن الكريم في النفس المؤمنة: بثَّ روح الرجاء، وإحياء طاقة الأمل في رحمة الله ونصره، فالقرآن لا يكتفي بعرض المحنة وحدها، بل يُتبعها دائمًا بالفَرَج، ويُقرن الضيق بالمخرج، حتى يعلم القارئ أنَّ الكرب مهما اشتدَّ فإنَّ نصر الله قريب.

وتَجَلَّى ذلك بوضوح في قصة نبي الله نوح ﷺ الذي لبث في قومه ردحًا من الزمن يدعوهم فلم يستجيبوا، ثمَّ حين حَلَّ القضاء الإلهي صوَّر القرآنُ المشهدَ بدقَّة مؤثِّرة، فقال تعالى: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾** [هود: ٤٢].

وفي هذه الآية مشهدٌ بالغ التأثير؛ الأمواج كالجبال تتلاطم، وسفينةٌ صغيرة تتوسَّطها، وفي الطرف الآخر نرى أبًا يصرخ بآخر أمل في قلبه نحو ابنه الضائع، فيكشف ذلك عن حجم الابتلاء الذي عاشه نوح ﷺ، ابتلاءً في دعوته، وابتلاءً في أهله وولده.

ثم تأتي الآية الثانية لِتُتِمَّ المشهد وتختمه بالنجاة والفرج، قال تعالى: ﴿**وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾** [الأنبياء: ٧٦].

وهذه الآية تحمل في طَيَّاتها بشارةً لكلّ مكروب؛ فقد نادى نوح ﷺ ودعا، فاستجاب الله له ونجَّاه، وفي ذلك إيحاءٌ للمؤمن بأنَّ الدعاء هو المفتاح، وأنَّ الله لا يُضَيِّع نداء المضطرّ، وأنَّ لكل كربٍ عظيمٍ فرجًا عظيمًا.

وإذا كانت قصص الأنبياء ﷺ تُرَسِّخ هذا الرجاء، فإنَّ القرآن الكريم في الوقت ذاته يُسَلِّي النبي ﷺ ويردُّ عنه حسرته على من أعرض، فقال تعالى: ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾** [فاطر: ٨].

وفي هذا النهي الرحيم لطفٌ إلهيٌّ بالنبي ﷺ، كأنَّ الله يقول له: لقد أدَّيتَ ما عليك، فلا

تُهلك نفسك حُزنًا على من اختار الضلال واتَّبع سبيل الغي، فليست الهداية بيدك، وإنَّما هي بيد الله وحده، وفي هذا تخفيفٌ على كلّ داعية يحمل هَمَّ الناس، وتذكيرٌ بأنَّ الثمرة بيد الله، وعليه وحده التوكُّل.

وعندما تجتمع هذه الأبعاد الأربعة تُنتج شخصية متوازنة متكاملة؛ عقلها يبحث عن القانون ويستنبط السُّنَن، وجوارحها تعمل وفق القدوة وتتأسَّى بالنموذج، وضميرها يزن الأمور بميزان القيمة الخُلُقيّة، وقلبها ينبض بالأمل والخشية. وهذا ما يجعل القرآن «مُهيمنًا» على الوعي الإنسانيّ؛ لا يخبرنا بما حدث فحسب، بل يخبرنا من نحن وكيف يجب أن نكون وسط صراعات التاريخ ومفترقات الحضارات.

ثانيًا: القصص القرآنيّ وبناء الوعي الحضاريّ

يُمثِّل الوعي الحضاريّ في المنظار القرآنيّ حجر الزاوية للمشروع الإنسانيّ؛ إذ يستحيل تصوُّر أي نهوض حضاريّ حقيقيّ أو إصلاح اجتماعيّ فاعل بمعزل عن تأسيس وعي راشد متكامل الأبعاد، يمتلك القدرة على نقد الموروث والمألوف ومراجعة اليقينيات الموروثة. فالخطاب القرآنيّ لا يتعامل مع العقل بوصفه وعاءً سلبيًّا للمعلومات، بل يُفعِّله بوصفه قوّةً مُوَجِّهةً للسلوك، ومُحَرِّكًا فاعلاً للتغيير، وضمانةً جوهريّةً لاستدامة العمران البشريّ وتجدُّده.[1]

والوعي الحضاريّ بمفهومه القرآنيّ الدقيق يمكن تعريفه بأنَّه: منظومة إدراكيّة متكاملة تتشكَّل لدى الإنسان من خلال استبصار القوانين الكلّية (السُّنَن) التي تحكم حركة الأُمم وصعودها وهبوطها، فتتحوَّل القصة القرآنيّة من مجرّد سرد لواقعة زمنيّة مضت إلى نموذج ذهنيّ ومعياريّ فاعل، يمنح الفرد بصيرة نافذة لتقويم الحضارات بميزان القيم لا بميزان المادّة والحجم. فـ «المعارف الحَقَّة والأصول الخُلُقيّة والقوانين العمليّة المتَّفقة مع فطرة الإنسان

١ - أحمد محمود: مجلة ابن خلدون، ص٢٤.

حقائق ثابتة لا تتغيّر مع مرور الزمن، والمنهج القرآنيّ الذي يمتاز بوضوح أحكامه وثباتها لا تؤثّر عليها الحركة التطوّريّة، بل هو يؤثّر فيها ويُصَحِّح مسارها».[1]

ولتحقيق هذه الوظيفة العظيمة في بناء الوعي الحضاريّ للإنسان، كان لا بدّ للقرآن من الاهتمام بثلاثة محاور جوهريّة متكاملة:

١- العبرة لا التوثيق

إنَّ الوظيفة الجوهريّة للقصص القرآنيّ تتمثَّل في تحرير «العبرة» من أسر الحدث الفرديّ المنقضي، وتحويلها إلى قانون كلّيّ صالح للتطبيق في كلّ زمان ومكان. ولو أنَّ القرآن أرَّخ لـ «عاد» بسلالاتها وملوكها وتواريخها الدقيقة، لتحوَّل القارئ إلى مؤرِّخ يقف في متحف الماضي يتفرَّج على أحداث منقضية لا تعنيه. وبتجاوز التفاصيل الجزئيّة، يُجرِّد القرآن الحدث من فرديّته ليكشف عن القانون الكلّيّ: فكلّ حضارة اغترَّت بقوّتها وكذَّبت نبيَّها وأعرضت عن منهج الوحي كانت عُرضةً للهلاك والزوال، أيًّا كان زمانها أو مكانها أو مستوى قوّتها المادّيّة.

وكلمة «عبرة» مشتقّة لغويًّا من «العبور»[2]، وهو الانتقال من ضفّة إلى أخرى؛ وهي الحالة التي يتوصَّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد.[3]

ومن أعظم الشواهد على ذلك ما ورد في نهج البلاغة، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة القاصعة: «فاعتبروا بما أصاب الأُمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتَّعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم».[4]

حيث «يحرص القرآن في مجال القصة القرآنية على أن يدعو أثناء عرض القصة أو بعد

---

١ - عبد المجيد مهدي الستراوي: القرآن نهج وحضارة، ص١٠١.

٢ - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٥٤٣.

٣ - وهذا تعبير عن الانتقال من الحسي المشاهد إلى المجرد الذي لا تمكن مشاهدته.

٤ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج١٤، ص٤٦٨.

الانتهاء منها إلى استخراج العبرة منها، وأحيانًا يبتدئ القصة بذكر العبرة منها. ويؤكِّد هذا ما جاء في بداية قصة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾».[1]

وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، فنجد أنَّ الله – سبحانه - بعد أن بسط القول في تفاصيل قصص يعقوب ويوسف عليهما السلام، وأشار إلى قصص سائر الأنبياء والمرسلين، عمد إلى بيان الغاية الأسمى من هذا القصص الإلهي؛ أي استحضار أحوالهم وتأمّل كيفية دعوتهم ومعاينة معارضة أُممهم وما آلت إليه من عذاب ونكال. ففي ذلك كلّه عبرة وعظة بالغة ميسَّرة لأولي الألباب الذين يتجاوزون ظاهر الحكاية إلى باطن الحقيقة.[2]

وبذلك ننتهي إلى هذه الحقيقة الجوهرية في الغاية من القصص القرآني: «إنما قصص القرآن قصصٌ لأمور واقعة، يساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، فهو قصص للعبرة لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة».[3]

ولإثراء فهم هذا البُعد المتعلّق بالعبرة يمكن استعراض خمسة أنواع من العِبَر الحضارية التي يمكن استخلاصها من القصص القرآني:

أ- العبرة البنيوية: تحرير العقل وبناء القاعدة الفكرية

أي بناء حضاري متين لا بد أن يسبقه تحرير حقيقي لعقل الإنسان من قيود التقليد الأعمى والجمود الفكري. ويظهر هذا جليًّا في قصة إبراهيم عليه السلام حين واجه العقل الجمعي الراكد بحجج قاطعة، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا

١ - محمد فاروق النبهان: المدخل إلى علوم القرآن الكريم، ص٢٨١.
٢ - محمد النهاوندي: نفحات الرحمن في تفسير القرآن، ج٣، ص٤٥٤.
٣ - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى القرآن، ص١٢١.

﴿إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣-٦٤]، و«هذا يدلّ على أنّهم كانوا في تقليدهم لآبائهم مسلوبي العقول، فلمّا باهتهم إبراهيم بحجته انتبهوا من رقدة التقليد ورجعوا إلى عقولهم المدركة فحكموا بظلم أنفسهم».[1]

ب- العبرة التحريرية: مقاومة الاستعباد السياسي

إنَّ «الكرامة الإنسانية» شرط العمران الحقيقي، فلا يمكن إقامة حضارة راشدة بوجود استبداد يسحق إرادة الإنسان ويُهدر كرامته. وتتجلّى هذه العبرة في رسالة موسى وهارون عليهما السلام التي تضمَّنت مطلبًا سياسيًّا وحقوقيًّا واضحًا، جاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، فإنَّ «جوهر الصراع بين موسى وفرعون كان بين منطق الكرامة الإنسانية ومنطق الاستكبار المادي. فقد جاء موسى ليهدم هذه المنظومة الاستعبادية مؤكِّدًا أنَّ الإنسان هو الهدف، وأنَّ بناء المجتمع الراشد يبدأ بفك الأغلال».[2]

ج- العبرة الاستخلافية: حمل أمانة التمكين وبناء الأرض

تكشف قصص الأنبياء الذين آتاهم الله الملكَ والسلطانَ عن نموذج قرآني رفيع في فهم معنى التمكين الحضاري؛ إذ لا يُقدِّمه القرآن باعتباره غايةً في ذاته، بل يربطه ربطًا عضويًّا بمسؤولية العمران وأمانة الاستخلاف.

وفي قصة داوود عليه السلام يتجلّى هذا المعنى في أبهى صوره، فقد جمع الله له بين نعمة القوّة المادية ونعمة السلطة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وقال

١ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص٣٠٤.
٢ - محمد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج٧، ص١٩٤.

تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ [ص: ٢٦].

والملاحظ في الآية الأولى أنَّ الله حين منح داوودَ عليه السلام تسخيرَ الجبال وتليينَ الحديد، أعقب ذلك مباشرةً بالأمر بالعمل الصالح، وفي هذا التعقيب إشارة بالغة الدلالة إلى أنَّ القدرة الصناعية لا تكتسب قيمتها الحقيقية إلا حين تُصرَف في سبيل مرضاة الله وخدمة الإنسان، وقد أدرك (العلامة الطباطبائي) هذه الدلالة فنبَّه إليها بقوله: «تذليل المادّة لـداوود عليه السلام وإلانة الحديد له، عُقِّب مباشرةً بالأمر بالعمل الصالح، ليدلّ على أنَّ الاقتدار الصناعي إنّما يكتسب قيمته إذا صُرِف في طريق مرضاة الله، وأنَّ القوّةَ التي لا تتجه نحو الوجه الكريم كلَّها باطلة وهالكة».[1]

أما الآية الثانية فتكشف عن البُعد السياسي للاستخلاف؛ إذ يُخاطَب داوود عليه السلام بصفته خليفةً في الأرض ويُؤمَر بالحكم بالحقّ، ما يُبيِّن أنَّ السلطة في المنظار القرآني ليست امتيازاً شخصيًّا بل أمانة إلهية، معيار نجاحها ليس الهيمنة والسيطرة، بل العدل والصلاح.

د- العبرة من الهلاك والسقوط: عوامل السقوط الحضاري في ضوء القصص القرآني

لا يقرأ القرآن الكريم التاريخَ قراءةً سطحية تقف عند حدود المعارك والغزوات، بل يتجاوز ذلك إلى استكشاف الأسباب الداخلية العميقة التي تُولِّد الانهيار من داخل الأُمّة قبل أن يأتيها من خارجها، وقد جمع الله هذه الأسباب في قوله عز وجل: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦]، فجعل المترفين المفسدين هم المحرّك الأول لسنة الهلاك.

وتأتي قصة (قارون) في القرآن الكريم نموذجًا حضاريًّا جامعًا يُصوِّر هذه الآلية بدقّة بالغة، فـ(قارون) لم يكن مجرّد ثريٍّ متكبرٍ، بل كان يمثِّل منظومة فكرية خاطئة كاملة في النظر إلى

١ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص٣٦٢.

المال والسلطة والمعرفة، تجلَّت في قوله الذي حكاه الله عزّ وجلّ: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ [القصص: ٧٨]، فنسب الثروة إلى كفاءته الذاتية وحدها، وهذا هو الغرور المعرفي بعينه الذي يقطع الإنسان عن الله ويُوهِمُه بالاكتفاء الذاتي، ثمّ يُعقِّب الله على هذا الغرور بالتذكير بسُنَّة إهلاك من سبق: ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا**﴾ [القصص: ٧٨]، وفي هذا التعقيب إدانةٌ للغفلة التاريخية التي تُعمي أصحاب القوَّة عن قراءة مصائر من سبقوهم.

فإنَّ مسألةَ قارون تمثِّل "الرمز الأبرز للرأسمالية الجشعة التي تنسب الفضل إلى ذكائها وخبرتها. هذا الاستعلاء بالمال يقتل روح التكافل ويمزِّق الأُمَّة إلى طبقة مسحوقة وطبقة متخمة. وفي قول الله ﴿**فخسفنا به وبداره**﴾ عبرة لكل نظام اقتصادي يُبنى على الأنانية؛ فالعمران لا يدوم إذا بُني على سحق الفقراء واحتكار الثروات".[1]

وهذا الاستعلاء بالمال لم يكن ضررًا فرديًّا يقتصر على (قارون) وحده، بل أدّى إلى تمزيق البنية الاجتماعية للأمة كلِّها؛ إذ أفرز طبقةً مسحوقة محرومة في مواجهة طبقة متخمة مستكبرة، فمات التكافل وانقطع التضامن وتبخَّر معنى الأُمَّة الواحدة. وحين بلغ الفساد منتهاه جاء القضاء الإلهي حاسمًا، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**﴾ [القصص: ٨١]، فلم تُغنِ عنه ثروته ولا خبرته ولا حاشيته شيئًا، وفي هذا الخسف عبرةٌ خالدة مفادها أنَّ العمران الذي يُبنى على احتكار الثروة وسحق الضعفاء وإقصاء العدل هو عمرانٌ يحمل بذور فنائه في داخله.

هـ- العبرة النخبوية: دور الفئة الواعية في لحظات الأزمات

تُستقى هذه العبرة من النماذج الفردية التي تحمل وعيًا حضاريًّا استثنائيًّا وتقوم بدور

١ - محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، ج٦، ص٨٩.

المعارضة الإيجابية البنّاءة حين يغرق النظام العام في الفساد والطغيان، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ [غافر: ٢٨-٢٩]؛ حيث «كان هذا الرجل من كبار شخصيات البلاط الفرعوني، وقد كتم إيمانه ليحتفظ بموقعه الاستراتيجي الذي يمكنه من حماية الرسالة في اللحظات الحاسمة. وعندما صدر قرار تصفية موسى تدخّل بحنكة سياسية بالغة ولم يكتفِ بالدفاع العاطفي، بل قدّم تحليلاً سياسيًّا يُحذّرهم من الغرور بالسلطة المؤقتة». وفي هذا النموذج القرآنيّ الفريد درسٌ بالغ الأثر في فقه الأولويات وحكمة التوقيت؛ إذ يكشف أنَّ الوعي الحضاري الحقيقي لا يقتصر على امتلاك الحق، بل يمتد إلى إتقان فنّ توظيفه في اللحظة المناسبة وبالأسلوب الأنجع. فهذا الرجل المؤمن لم يكن جاهلاً بخطورة موقفه، ولم يكن غافلاً عن ثمن الجهر بإيمانه في بلاط يحكمه الطغيان؛ لكنَّه آثر أن يكون سلاحًا محفوظًا في غمده حتى تحين لحظة الضرورة القصوى، فلما جاءت تلك اللحظة كان أثره أعظم بما لا يُقاس من أثر من أعلنوا مواقفهم مبكّرًا ففقدوا تأثيرهم. وهذا ما يُفرّق القرآن الكريم بين الشجاعة العاطفية التي تندفع دون حساب، وبين الشجاعة الاستراتيجية التي تختار ميدانها وتُحسن توقيتها. وليس أدلّ على ذلك من أنَّ القرآن وصفه بـ «يكتم إيمانه» في سياق المدح لا الذمّ، ما يؤسّس لمبدأ راسخ: أنَّ خدمة الرسالة قد تقتضي أحيانًا إخفاء صاحبها ليبقى فاعلاً، لا إظهاره ليُسكَت مبكّرًا.[1]

٢- تثبيت النموذج الثابت خلف المتغيّرات (تكرار النماذج لا الأحداث)

يُكرّر القرآن القصص ببنيات شبه ثابتة الأركان: الرسالة والتكذيب والاستكبار والإنذار والهلاك، فلا يكرّر «أحداثًا» وقعت فحسب، بل يُعيد إنتاج «النموذج» الواحد في أواني

١ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص٧٨.

بشرية مختلفة عبر العصور. يقول (الشيخ المطهري): «إنَّ القرآن لا ينظر إلى قصص الأمم السابقة [بوصفها] حوادثَ شخصيةً عابرةً، بل يتعامل معها بوصفها سُننًا وقوانينَ تحكم حركة المجتمعات. فالأشخاص في القرآن كالأنبياء والفراعنة نماذج ورموز لتيارات اجتماعية تتصارع في كل زمان. وعندما يُكرّر القرآن قصة (فرعون) فهو يُعطي قاعدة كلية بأنَّ كل نظام يبتني على الاستكبار المادي واستعباد الناس فمصيره الحتمي الهلاك بصرف النظر عن الزمان والمكان».[1]

إنَّ ما يُميّز العقل القرآنيّ في تناول التاريخ أنّه يرفض أن يُحنّط الماضي في زجاجة الزمن ويضعه في متحف العبر الجامدة، بل يجعله مادةً حيّةً نابضةً تتجاوز حدودها الزمانية والمكانية لتصبح قانونًا ساريًا وسُنّةً ماضيةً في كل جيل. والفارق بين من يقرأ التاريخ قراءةً أرشيفيةً تحصيليةً وبين من يقرأه قراءةً قرآنيةً سننيّةً، هو الفارق بين من ينظر إلى المرآة ليرى ما فيها، وبين من ينظر فيها ليرى نفسه؛ ذلك أنَّ السُّنّة التاريخية في الرؤية القرآنية ليست حكمًا على الماضين وحدهم، بل هي حكم على كل من يُعيد إنتاج شروط ذلك الماضي في حاضره، فكلّ من تبنّى الاستكبار بشّره بقرب هلاكه، وكل من آثر العدل والإيمان سار على طريق النجاة ذاتها التي سار عليها المؤمنون من قبله.

وما ذلك إلّا أنَّ «القرآن حين يستعرض القصص التاريخية لا يعرضها بوصفها حوادث منفصلة ماتت وانقضت، بل يسوقها تعبيراً عن سُنّة تاريخية وقانونٍ مطَّرِد. فما أصاب (فرعون) أو عادًا أو ثمودَ ليس صدفةً تاريخيةً، بل هو نتيجةٌ حتميةٌ لنموذج الاستكبار الذي كلّما تكررت شروطه في أي أوانٍ بشريٍّ تكررت نتائجه؛ وهذا ما يمنح المسلم وعيًا بصيراً بحركة التاريخ».[2]

٣- منع تقديس الماضي وتحرير الوعي نحو المستقبل

أحد أخطر معوّقات الوعي الحضاريّ هو تقديس الماضي وتحويله إلى «زمن الآباء العظام»

١ - مرتضى مطهري: المجتمع والتاريخ، ص٨٥.

٢ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٣٥.

الذي يُقلِّد تقليدًا أعمى كسولاً دون بصيرة أو نقد. وقد هاجم القرآن هذه الآفة الحضاريّة عبر آليّات تحليليّة متعدّدة ومتكاملة:

أ- الآليّة الأولى: الإسقاط المعرفي لحجّة صواب السلف

يُعتبر «القِدَم» في الوعي المتخلّف دليلاً على الصواب بذاته. والقرآن يَشُنُّ هجومًا لاذعًا على هذه المغالطة المنطقيّة ويسحب الشرعيّة المعرفيّة من «الزمن» ويضعها في «البرهان»، قال تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٢]، ويطرح القرآن البديل الاستفزازي الذي يهزُّ العقل ويُخرجه من رقدة التقليد، قال عزّ وجلّ: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهذا «الداء، أعني التقليد، هو الذي أهلك الأمم وأزال دولهم وأذهب مجدهم. واعتقاد أنَّ من سلف كان أعلم ممن خلف وأنَّ المتأخّر لا يمكن أن يدرك ما أدركه المتقدّم، هذا من أعظم الجهل؛ فإنَّ المتأخّر قد يستفيد من تجارب السلف ما لم يكن حاصلاً لهم، فالقرآن يَنعى على من يجمد على ما ورثه من الآباء ويترك استعمال العقل الذي ميّزه الله به».[1]

ب- الآليّة الثانية: إبطال وَهْم الرصيد الحضاريّ المتوارث

من أخطر أمراض تقديس الماضي شعور الأجيال اللاحقة بـ «الامتلاء الكاذب»؛ إنَّ اعتقادهم أنَّ عظمة أجدادهم تنسحب عليهم بمجرّد الانتساب إليهم. يكسر القرآن هذا التخدير النفسي بقانون «القطيعة الحتميّة» بين أفعال الأجيال المتعاقبة: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٤]، وكما يقرّر أمير المؤمنين عليه السلام في قاعدته الذهبيّة الخالدة: «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[2]. فإنَّ

١ - رشيد رضا: تفسير المنار، ج٢، ص٧٦-٧٧.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٨٩.

«الأمّة كلّها مسؤولة عن نفسها، لا تحمل وزر غيرها ولا تتبنّى مكتسبات غيرها، هذه سنّة تاريخيّة من سنن الله الثابتة في الكون».[1]

ج- الآليّة الثالثة: استبدال معيار الأثر الحضاريّ من المادّيّ إلى القِيَميّ

يُقدَّس الماضي عادةً بسبب آثاره المادّيّة الضخمة من قصور وأهرامات وصروح شاهقة. يتدخّل القرآن ليُعيد تعريف ما هو «عظيم» حقًّا، مُعلنًا أنَّ الحضارة التي تبني الجدران، لكنّها تفتقر إلى العدل والرحمة والتوحيد، هي حضارة هشّة في ميزان الوجود الإلهيّ: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**﴾ [الشعراء: ١٢٨]

فالبناء الضخم إذا كان لمجرّد العبث أو الاستعلاء والتفاخر، أفرغه القرآن من قيمته الحضاريّة؛ ليعلم المسلم أنَّ الأثر الحقيقي الجدير بالخلود هو «تأسيس العدل» لا «تراكم الحجارة»، وأنَّ الحضارة تُقاس بما تصنعه في الإنسان وللإنسان، لا بما تشيّده من صروح مادّيّة.

د- الآليّة الرابعة: التحوّل من التبعيّة العمياء إلى موقع الخلافة المسؤولة

الفلسفة الكامنة خلف تقديس الماضي هي محاولة «استعادة» لحظة تاريخيّة مضت وإعادة استنساخها في تبعيّة مطلقة. ويُقدّم القرآن مفهومًا ديناميكيًّا بديلاً، وهو «الاستخلاف»؛ قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

يُبيّن (العلامة الطباطبائي): «الاستخلاف إنّما هو لغرض الامتحان والابتلاء ليبرز ما في القوّة إلى الفعل ولتمييز الخبيث من الطيّب، لا لكرامة ذاتيّة للمستخلفين تُغنيهم عن العمل. فالله يرفع قومًا ويضع آخرين لينظر كيف يعمل الباقون، وهل يعتبرون بمن مضى أم يقلّدونهم في هلكتهم».[2]

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص٦٥.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص٢٢٥-٢٢٦.

فالخليفة مُلزَم بالعمل بما يقتضيه استخلافه، وليس له تقليد من سبقه والاكتفاء بذلك، بل هو امتداد يتجاوزهم ويبني على تجاربهم دون أن يكون أسيراً لها. وهكذا تُوَجَّه بوصلة الإنسان نحو تكليفه الواقعيّ المنبثق من الحاضر والمُشَرَّع نحو المستقبل، بدلاً من الالتفات الدائم إلى الوراء والانشغال بالاحتفاء الكسول بما صنعه الآباء.

خاتمة

أثمرت هذه الدراسة التحليليّة لـ «القصص القرآنيّ ومسؤوليّة الوعي الحضاريّ» عن جملة من النتائج المعرفيّة والمنهجيّة الجوهريّة، يمكن إجمالها في ما يأتي:

١ - التحوّل من التوثيق السرديّ إلى التقنين المعرفيّ:

أثبت البحث أنَّ القرآن يتعمّد ممارسة «التجريد الزمانيّ والمكانيّ» للأحداث بوصفه تقنيّة معرفيّة متقصودة، تهدف إلى تحرير «العبرة» من أسر الحدث الفرديّ المنقضي وتحويلها إلى «قانون كُلّيّ» مستمرّ الاطراد والصلاحيّة. فالقصّة القرآنيّة تُهندس العقل لينتقل من مجرّد الانبهار بالواقعة إلى استبصار القانون الذي يحكمها، فيصبح الإنسان صانع حضارة فاعلاً لا مجرّد متفرّج عليها.

٢ - تفكيك مركزيّة «الآبائيّة» وإسقاط القداسة عن الماضي:

كشفت الدراسة أنَّ القرآن يقدّم معالجة جذريّة لأخطر معوّقات الوعي الحضاريّ، عبر سحب الشرعيّة المعرفيّة من «القِدَم» واعتباره حجّة باطلة لا تصمد أمام العقل، مؤكّدًا أنَّ الصواب يُقاس بالبرهان لا بالتبعيّة العمياء. كما أسقط وَهْم «الرصيد الحضاريّ المتوارث» من خلال إقرار قانون القطيعة الحتميّة بين الأجيال.

٣ - إعادة صياغة المعيار الحضاريّ (القيم حاكمة على المادّة):

بيّن البحث أنَّ القصص القرآنيّ يطرح ميزانًا نقديًّا لتقويم الحضارات مبنيًّا على تفوّق «العمران القيميّ» على «العمران المادّيّ»، فالقرآن يُحقّر العمارة المادّيّة الشاهقة والقوّة العسكريّة الضخمة إذا تجرّدت من قيم العدالة والتوحيد والكرامة الإنسانيّة، ويعتبر البناء المنفصل عن الغاية الخُلُقيّة ضربًا من العبث ومؤشّرًا حتميًّا على السقوط الوشيك.

٤ - حيويّة النماذج وتكرارها التجاوزيّ:

خلص البحث إلى أنَّ تكرار القصص في القرآن هو «تكرارٌ للنماذج» لا للأحداث العابرة؛ فشخصيّات كـ(فرعون) و(قارون) و(مؤمن آل فرعون) قوالب حيّة تتكرّر في كل زمان ومكان، ما يمنح المسلم وعيًا استشرافيًّا يجعله قادرًا على تشخيص هذه النماذج في واقعه المعاصر ومواجهتها بأدوات وعيه القرآنيّ الراسخ.

٥ - «الاستخلاف» بديل استراتيجيّ للتبعيّة:

أظهرت الرؤية القرآنيّة أنَّ البديل الحقيقيّ لتقديس الماضي هو تفعيل مبدأ «الاستخلاف» الذي ينقل الإنسان من موقع «حارس التراث» المتفرّج إلى موقع «الفاعل الحضاريّ» المُلزَم باختبار عمليّ ديناميكيّ مستمرّ، يتجاوز أخطاء الماضي، ويتعلّم من تجاربه، ويصنع واقعه وفق سُنَن الله الثابتة.

٦ - البناء التكامليّ للهويّة الحضاريّة:

أكّد البحث أنَّ آليّة القرآن في صناعة الوعي الحضاريّ تعمل على هندسة شخصيّة إنسانيّة رباعيّة الأبعاد متوازنة: تمتلك عقلاً يدرك السنن ويستنبط القوانين (البُعد المعرفيّ)، وجوارح تتحرّك وفق المنهج وتتّخذ المواقف الصحيحة (البُعد السلوكيّ)، وضميراً يزن الأشياء

بالميزان الخُلُقيّ الثابت (البُعد القِيَميّ)، وقلبًا تملؤه الدافعيّة الحيّة بين الخوف والرجاء (البُعد الوجدانيّ). وعند تكامل هذه الأبعاد الأربعة يولد الإنسان الحضاريّ الفاعل والقادر على صناعة التاريخ لا مجرّد قراءته.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- -محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى: القرآن، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٣٩٦هـ.
- أحمد محمود أحمد: «محوريّة الوعي في البناء الحضاريّ من منظور القرآن»، مجلّة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، تونس، المجلّد ٥، العدد ١٠، أكتوبر ٢٠٢٥م.
- محمد إقبال: تجديد التفكير الدينيّ في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف عدس، القاهرة، دار الهداية، ١٤٢١هـ.
- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، بيروت، الدار الشامية، ١٤١٢هـ.
- السيد محمد باقر الحكيم: القصص القرآني، قم، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ط٣، ١٣٧٤ش.
- عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن. بيروت، دار الفكر العربي، ط١، ١٤٢٤هـ.
- الشيخ الستراوي: القرآن نهج وحضارة، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط١، ١٤٠٤هـ.
- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي ومحمد الباقر البهبودي، دار إحياء التراث، ط٣، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بيروت، مؤسسة البعثة، ط١، ١٤١٣هـ.
- محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط٣، ١٤٠١هـ.
- العلامة الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٧هـ.
- السيد محمد تقي المدرسي: من هدى القرآن، طهران، دار محبي الحسين، ط١، ١٤١٩هـ.

- محمد فاروق النبهان: المدخل إلى علوم القرآن الكريم، حلب، دار عالم القرآن، ط١، ١٤٢٦هـ.
- الشيخ محمد النهاوندي: نفحات الرحمن في تفسير القرآن، قم، مؤسسة البعثة، ط١، ١٤١٧هـ.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ط٤، ١٤٢٢هـ.
- الشيخ جوادي آملي: تفسير تسنيم، قم، مؤسسة إسراء للنشر، ط١، ١٣٨٨ش.
- محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- الشيخ مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ، بيروت، الدار الإسلامية، ط٢، ١٤٠٩هـ.
- الشيخ محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١م.